سورة مريم

١ـ اسم هذه السورة في المصاحف وكتب التفسير وأكثر كتب السنة سورة مريم.

ورويت هذه التسمية عن النبيﷺ في حديث رواه الطبراني، والديلمي، وابن منده، وأبو نعيم، وأبو أحمد الحاكم: عن أبي بكر بن عبدالله بن أبي مريم الغساني عن أبيه عن جده أبي مريم قال: أتيت النبيﷺ فقلت: يا رسول الله إنه ولدت لي الليلة جارية، فقال: «**والليلة أنزلت علي سورة مريم؛ فَسمِّها مريم**».

فكان يكنى أبا مريم، واشتهر بكنيته، واسمه نذير، ويظهر أنه أنصاري.

وابن عباس سماها سورة كهيعص، وكذلك وقعت تسميتها في صحيح البخاري في كتاب التفسير في أكثر النسخ وأصحها، ولم يعدها جلال الدين في الإتقان في عداد السور المسماة باسمين، ولعله لم يَرَ الثاني اسماً.

وهي مكية عند الجمهور، وعن مقاتل: أن آية السجدة مدنية، ولا يستقيم هذا القول؛ لاتصال تلك الآية بالآيات قبلها إلا أن تكون ألحقت بها في النزول وهو بعيد.

وذكر السيوطي في الإتقان قولاً بأن قوله ـتعالىـ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ الآية مدني، ولم يعزه لقائل.

وهي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب النزول؛ نزلت بعد سورة فاطر وقبل سورة طه، وكان نزول سورة طه قبل إسلام عمر بن الخطاب كما يؤخذ من قصة

إسلامه؛ فيكون نزول هذه السورة أثناء سنة أربع من البعثة مع أن السورة مكية، وليس أبو مريم هذا معدوداً في المسلمين الأولين؛ فلا أحسب الحديث المروي عنه مقبولاً.

ووجه التسمية أنها بسطت فيها قصة مريم وابنها وأهلها قبل أن تفصَّل في غيرها، ولا يشبهها في ذلك إلا سورة آل عمران التي نزلت في المدينة.

وعدت آياتها في عدد أهل المدينة ومكة تسعاً وتسعين، وفي عدد أهل الشام والكوفة ثماناً وتسعين. ١٦/٥٧ـ٥٨

٢ـ **أغراض السورة:** ويظهر أن هذه السورة نزلت للرد على اليهود فيما اقترفوه من القول الشنيع في مريم وابنها، فكان فيها بيان نزاهة آل عمران، وقداستهم في الخير.

وهل ينبت الخطيَّ إلا وشيجُه[1]

ثم التنويهُ بِجَمْعٍ من الأنبياء والمرسلين من أسلاف هؤلاء وقرابتهم، والإنحاءُ على بعض خلفهم من ذرياتهم الذين لم يكونوا على سننهم في الخير من أهل الكتاب والمشركين، وأتوا بفاحش من القول؛ إذ نسبوا لله ولداً، وأنكر المشركون منهم البعثَ وأثبت النصارى ولداً لله ـتعالى ـ.

والتنويهُ بشأنِ القرآن في تبشيره ونذارته.

وأن الله يسَّره بكونه عربياً؛ لِيسْرِ تلك اللغة.

---

١ ـ هذا صدر بيت شاهد نحوي، وعَجُزه:

وتنبت إلا في منابتها النَّخْلُ (م)

والإنذارُ مما حل بالمكذبين من الأمم من الاستئصال.

واشتملت على كرامةِ زكريا؛ إذ أجاب الله دعاءه، فرزقه ولداً على الكبر وعَقْرِ امرأته.

وكرامةِ مريمَ بخارقِ العادة في حَمْلِها وقَدَاسةِ ولدِها، وهو إرهاصٌ لنبوءة عيسى ـ عليه السلام ـ ومثلُهُ كلامُه في المهد.

والتنويهُ بإبراهيمَ، وإسحاقَ، ويعقوبَ، وموسى، وإسماعيلَ، وإدريسَ ـعليهم السلامـ.

ووصفُ الجنةِ وأهلِها.

وحكايةُ إنكارِ المشركين البعثَ بمقالة أُبيٍّ بنِ خلفٍ، والعاصي بنِ وائلٍ وتَبَجُّحِهم على المسلمين بمقامهم ومجامعهم.

وإنذارُ المشركين أن أصنامَهم التي اعتزوا بها سيندمون على اتخاذها.

ووعدُ الرسولِ النصرَ على أعدائه.

وذِكْرُ ضَرْبٍ مِنْ كُفْرِهم بنسبة الولد لله ـتعالىـ.

والتنويهُ بالقرآن، وبلُغته العربية، وأنه بشيرٌ لأوليائه، ونذيرٌ بهلاك معانديه كما هلكت قرونٌ قَبْلَهم.

وقد تكرر في هذه السورة صفَةُ الرحمن ستَّ عشرةَ مرةً، وذكرُ اسمِ الرحمةَ أربعَ مرات؛ فأنبأ بأن مِنْ مقاصدِها تحقيقَ وصفِ الله ـتعالىـ بصفةِ الرحمن، والردَّ على المشركين الذين تقعروا بإنكار هذا الوصف كما حكى الله ـتعالىـ عنهم في قوله في سورة الفرقان: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾.

ووقع في هذه السورة استطرادٌ بآية ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ ١٦/٥٨-٦٠

٣ـ **وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود،** تشبيهاً مركباً تمثيلياً قابلاً لاعتبار التفريق في التشبيه، وهو أبدع أنواع المركب؛ فشبه الشعر الأسود بفحم، والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية ورمز إلى الأمرين بفعل ﴿ اشْتَعَلَ ﴾.

وأسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر الذي عمه الشيب؛ لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالباً؛ فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن.

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي؛ لأن الاشتعال من صفات النار المشبهِ بها الشيب، فكان الظاهر إسناده إلى الشيب؛ فلما جيء باسم الشيب؛ تمييزاً لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال مع إفادة تنكير ﴿ شَيْباً ﴾ من التعظيم؛ فحصل إيجاز بديع، وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس.

ولما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبني المعاني والبيان كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة نبه عليه صاحب الكشاف، ووضحه صاحب المفتاح؛ فانظرهما.

وقد اقتبس معناها أبو بكر بن دريد في قوله:

واشـتعل المبـيض فـي مُـسْوَدِّه مثل اشتعال النار في جزل الغضا

ولكنه خليق بأن يكون مضرب قولهم في المثل: «ماء ولا كصدى».

والشيب: بياض الشعر، ويعرض للشعر البياض بسبب نقصان المادة التي تعطي اللون الأصلي للشعر، ونقصانها بسبب كبر السن غالباً، فلذلك كان الشيب علامة على الكبر، وقد يبيض الشعر من مرض. ١٦/٦٤ـ٦٥

٤ـ قال الجد الوزير[١] رحمه الله فيما أملاه علي ذات ليلة من عام ١٣١٨هـ فقال: «علم إبراهيم أن في طبع أهل الجهالة تحقيرهم للصغير كيفما بلغ حاله في الحذق، وبخاصة الآباء مع أبنائهم؛ فتوجه إلى أبيه بخطابه بوصف الأبوة؛ إيماءً إلى أنه مخلص له النصيحة، وألقى إليه حجة فساد عبادته في صورة الاستفهام عن سبب عبادته وعمله المخطىء؛ منبهاً على خطئه عندما يتأمل في عمله؛ فإنه إن سمع ذلك، وحاول بيان سبب عبادة أصنامه لم يجد لنفسه مقالاً؛ ففطن بخطل رأيه وسفاهة حلمه؛ فإنه لو عبد حياً مميزاً لكانت له شبهة ما.

وابتدأ بالحجة الراجعة إلى الحس؛ إذ قال له: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ﴾ فذلك حجة محسوسة، ثم أتبعها بقوله: ﴿وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾.

ثم انتقل إلى دفع ما يخالج عقل أبيه من النفور عن تلقي الإرشاد من ابنه بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾.

فلما قضى حق ذلك انتقل إلى تنبيهه على أن ما هو فيه أثر من وساوس الشيطان، ثم ألقى إليه حجة لائقة بالمتصلبين في الضلال بقوله: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً﴾.

١ـ هو الصدر الأعظم العالم الوزير العزيز بو عتور جد المؤلف لأمه توفي ١٣٢٥هـ. (م)

أي أن الله أبلغ إليك الوعيد على لساني، فإن كنت لا تجزم بذلك فافرض وقوعه؛ فإن أصنامك لم تتوعدك على أن تفارق عبادتها، وهذا كما في الشعر المنسوب إلى علي رضي الله عنه:

زعم المنجم والطبيب كلاهما — لا تحشر الأجسام قلت: إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر — أو صح قولي فالخسار عليكما

قال: وفي النداء بقوله ﴿يَا أَبَتِ﴾ أربع مرات تكرير اقتضاه مقام استنزاله إلى قبول الموعظة؛ لأنها مقام إطناب، ونظر[1] ذلك بتكرير لقمان قوله: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ ثلاث مرات، قال: بخلاف قول نوح لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا﴾ مرة واحدة دون تكرير؛ لأن ضيق المقام يقتضي الإيجاز وهذا من طرق الإعجاز». انتهى كلامه بما يقارب لفظه. ١٦/١١٣-١١٤

١ـ هذا في الأصل ولعل الصواب: ونظير. (م)

سورة طه

١ـ سميت سورة ﴿ طاها ﴾ باسم الحرفين المنطوق بهما في أولها.

ورسم الحرفان بصورتهما لا بما ينطق به الناطق من اسميهما؛ تبعاً لرسم المصحف كما تقدم في سورة الأعراف، وكذلك وردت تسميتها في كتب السنة في حديث إسلام عمر بن الخطاب ـكما سيأتي قريباًـ.

وفي تفسير القرطبي عن مسند الدرامي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ـتبارك وتعالىـ قرأ (طاها) باسمين قبل أن يخلق السماوات والأرض بألفي عام، فلما سمعت الملائكة القرآن قالوا: طوبى لأمة ينزل هذا عليها**» الحديث.

قال ابن فورك: «معناه أن الله أظهر كلامه، وأسمعه من أراد أن يسمعه من الملائكة؛ فتكون هذه التسمية مروية عن النبي ﷺ».

وذكر في الإتقان عن السخاوي أنها تسمى ـ أيضاً ـ (سورة الكليم) وفيه عن الهذلي في كامله أنها تسمى (سورة موسى). ١٦/١٧٩

٢ـ وهذه السورة هي الخامسة والأربعون في ترتيب النزول نزلت بعد سورة مريم، وقبل سورة الواقعة، ونزلت قبل إسلام عمر بن الخطاب؛ لما روى الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته عنه قال: خرج عمر متقلداً بسيف، فقيل له: إن ختنك وأختك قد صَبَوا، فأتاهما عمر، وعندهما خباب بن الأرت يقرئهما سورة ﴿ طاها ﴾، فقال: أعطوني الكتاب الذي عندكم

فأقرأه ، فقالت له أخته : إنك رجس ، ولا يمسه إلا المطهرون؛ فقم ، فاغتسل أو توضأ ، فقام عمر ، وتوضأ ، وأخذ الكتاب ، فقرأ (طه) فلما قرأ صدراً منها قال : ما أحسن هذا الكلام ، وأكرمه إلى آخر القصة.

وذكر الفخر عن بعض المفسرين أن هذه السورة من أوائل ما نزل بمكة.

وكان إسلام عمر في سنة خمس من البعثة قبيل الهجرة الأولى إلى الحبشة؛ فتكون هذه السورة قد نزلت في سنة خمس أو أواخر سنة أربع من البعثة.

وعدّت آيها في عدد أهل المدينة ومكة مائة وأربعاً وثلاثين وفي عدد أهل الشام مائة وأربعين ، وفي عدد أهل البصرة مائة واثنتين وثلاثين ، وفي عدد أهل الكوفة مائة وخمساً وثلاثين. ١٦/١٨٠ـ١٨١

٣ـ **أغراضها : احتوت من الأغراض على :** التحدي بالقرآن بذكر الحروف المُقَطَّعة في مُفْتَتَحِها.

والتنويهِ بأنه تنزيلٌ من الله لهدي القابلين للهداية؛ فأكثرها في هذا الشأن.

والتنويهِ بعظمةِ الله ـتعالىـ وإثباتِ رسالةِ محمد ﷺ بأنها تماثل رسالةَ أعظمِ رسولٍ قبله شاع ذكرُه في الناس؛ فَضُرِب المثلُ لنزول القران على محمد ﷺ بكلام الله موسى ـعليه السلامـ.

وبسطِ نشأةِ موسى ، وتأييدِ الله إياه ، ونصرِه على فرعون بالحجة والمعجزات ، وبصرف كيد فرعون عنه وعن أتباعه.

وإنجاءِ اللهِ موسى وقومَهُ ، وغرقِ فرعون ، وما أكرم اللهُ به بني إسرائيلَ في خروجهم من بلد القبط.

وقصةُ السامريِّ، وصُنْعِهِ العجلَ الذي عبده بنو إسرائيل في مغيب موسى -عليه السلام-.

وكلٌّ ذلك تعريضٌ بأن مآلَ بعثةِ محمدٍ ﷺ صائرٌ إلى ما صارت إليه بعثةُ موسى -عليه السلام- من النصر على معانديه؛ فلذلك انتقل من ذلك إلى وعيد مَنْ أعرضوا عن القرآن، ولم تنفعهم أمثالُه ومواعظُه.

وتذكيرُ الناس بعداوةِ الشيطان للإنسان بما تضمنته قصةُ خلقِ آدمَ.

ورَتَّب على ذلك سوءُ الجزاءِ في الآخرة لمن جعلوا مقادتَهم بيد الشيطان وإنذارُهم بسوء العقاب في الدنيا.

وتسليةُ النبيﷺ على ما يقولونه وتثبيتُه على الدين.

وتخلل ذلك إثباتُ البعثِ، وتهويلُ يومِ القيامة وما يتقدمه من الحوادث والأهوال. ١٦/١٨١-١٨٢

٤- **وإنما أمره الله بخلع نعليه؛** تعظيماً منه لذلك المكان الذي سيسمع فيه الكلام الإلهي.

وروى الترمذي[١] عن ابن مسعود عن النبيﷺ قال: «**كانت نعلاه من جلد حمار ميت**».

أقول: وفيه -أيضاً- زيادة خشوع.

وقد اقتضى كلا المعنيين قوله -تعالى-: ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ ﴾.

فحرف التوكيد مفيد هنا التعليل كما هو شأنه في كل مقام لا يقتضي التأكيد،

١- في لبس الصوف من كتاب اللباس.

وهذه خصوصية من جهات؛ فلا يؤخذ منها حكم يقتضي نزع النعل عند الصلاة. ١٦/ ١٩٧؛

٥ـ **واختلف المفسرون في معنى ﴿طُوىً﴾** وهو ـبضم الطاء وبكسرهاـ ولم يقرأ في المشهور إلا ـبضم الطاءـ فقيل: اسم لذلك المكان، وقيل: هو اسم مصدر مثل هدىً، وصف بالمصدر بمعنى اسم المفعول، أي طواه موسى بالسير في تلك الليلة، كأنه قيل له: إنك بالواد المقدس الذي طويته سيراً؛ فيكون المعنى تعيين أنه هو ذلك الواد.

وأحسن منه على هذا الوجه أن يقال هو أمرٌ لموسى بأن يطوي الوادي، ويصعد إلى أعلاه؛ لتلقي الوحي.

وقد قيل: إن موسى صعد أعلى الوادي، وقيل: هو بمعنى المقدس تقديسين؛ لأن الطي هو جعل الثوب على شقين.

ويجيء على هذا الوجه أن تجعل التثنية كناية عن التكرير والتضعيف مثل ﴿ثُمَّ ارْجِعْ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ فالمعنى: المقدس تقديساً شديداً، فاسم المصدر مفعول مطلق مبين للعدد، أي المقدس تقديساً مضاعفاً.

والظاهر عندي: أن ﴿طُوى﴾ اسم لصنف من الأودية يكون ضيقاً بمنزلة الثوب المطوي أو غائراً كالبئر المطوية، والبئر تسمى طوياً، وسمي وادٍ بظاهر مكة (ذا طوى) بتثليث الطاء، وهو مكان يسن للحاج أو المعتمر القادم إلى مكة أن يغتسل عنده.

وقد اختلف في ﴿طُوى﴾ هل ينصرف أو يمنع من الصرف بناء على أنه اسم

أعجمي، أو لأنه معدول عن طاوٍ، مثل عمر عن عامر.

وقرأ الجمهور ﴿ طُوى ﴾ بلا تنوين على منعه من الصرف.

وقرأه ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وخلف منوناً؛ لأنه اسم واد مذكر. ١٦/١٩٧ـ١٩٨

٦ـ ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴾.

هذا ما يوحي المأمور باستماعه؛ فالجملة بدل من ﴿ مَا يُوحَى ﴾ بدلاً مطابقاً.

ووقع الإخبار عن ضمير المتكلم باسمه العلم الدال على الذات الواجب الوجود المستحق لجميع المحامد؛ وذلك أول ما يجب علمه من شؤون الإلهية، وهو أن يَعْلَمَ الاسم الذي جعله الله علماً عليه؛ لأن ذلك هو الأصل لجميع ما سيخاطب به من الأحكام المبلغة عن ربهم.

وفي هذا إشارة إلى أن أول ما يتعارف به المتلاقون أن يعرفوا أسماءهم؛ فأشار الله إلى أنه عالم باسم كَلِيمه، وعلم كليمه اسمه، وهو الله.

وهذا الاسم هو علم الرب في اللغة العربية، واسمه ـتعالىـ في اللغة العبرانية (يَهْوَهْ) أو (أهْيَهْ) المذكور في الإصحاح الثالث من سفر الخروج في التوراة، وفي الإصحاح السادس.

وقد ذكر اسم (الله) في مواضع من التوراة مثل الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج في الفقرة الثامنة عشرة، والإصحاح الثاني والثلاثين في الفقرة

السادسة عشرة.

ولعله من تعبير المترجمين، وأكثر تعبير التوراة إنما هو الرب أو الإله.

ولفظ (أهيه) أو (يهوه) قريب الحروف من كلمة إله في العربية.

ويقال: إن اسم الجلالة في العبرانية (لاهُمْ).

ولعل الميم في آخره هي أصل التنوين في إله.

وتأكيد الجملة بحرف التأكيد؛ لدفع الشك عن موسى نُزِّلَ منزلةَ الشاكِّ؛ لأن غرابة الخبر تُعَرِّضُ السامع للشك فيه.

وتوسيط ضمير الفصل بقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ لزيادة تقوية الخبر، وليس بمفيد للقصر؛ إذ لا مقتضى له هنا؛ لأن المقصود الإخبار بأن المتكلم هو المسمى الله؛ فالحمل حمل مواطاة لا حمل اشتقاق، وهو كقوله -تعالى-: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾.

وجملة ﴿لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا﴾ خبر ثان عن اسم (إن).

والمقصود منه حصول العلم لموسى بوحدانية الله -تعالى-.

ثم فَرَّع على ذلك الأمر بعبادته.

والعبادة: تجمع معنى العمل الدال على التعظيم من قول وفعل وإخلاص بالقلب.

ووجه التفريع أن انفراده -تعالى- بالإلهية يقتضي استحقاقه أن يعبد.

وخص من العبادات بالذكر إقامةُ الصلاة؛ لأن الصلاة تجمع أحوال العبادة.

وإقامة الصلاة: إدامتها، أي عدم الغفلة عنها.

والذكر يجوز أن يكون بمعنى التذكر بالعقل، ويجوز أن يكون الذكر باللسان.

واللام في ﴿لِذِكْرِي﴾ للتعليل، أي أقم الصلاة؛ لأجل أن تذكرني؛ لأن الصلاة تذكر العبد بخالقه؛ إذ يستشعر أنه واقف بين يدي الله لمناجاته؛ ففي هذا الكلام إيماءٌ إلى حكمة مشروعية الصلاة، وبضميمته إلى قوله -تعالى-: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ يظهر أن التقوى من حكمة مشروعية الصلاة؛ لأن المكلف إذا ذكر أمر الله ونهيه فعل ما أمره، واجتنب ما نهاه عنه، والله عَرَّف موسى حكمةَ الصلاةِ مجملةً، وعرَّفها محمداً ﷺ مفصلة.

ويجوز أن يكون اللام -أيضاً- للتوقيت، أي أقم الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكري.

ويجوز أن يكون الذكر الذكر اللساني؛ لأن ذكر اللسان يحرك ذكر القلب، ويشتمل على الثناء على الله والاعتراف بما له من الحق، أي الذي عينته لك؛ ففي الكلام إيماء إلى ما في أوقات الصلاة من الحكمة، وفي الكلام حذف يُعْلَم من السياق. ١٦/١٩٩-٢٠١

٧- وجملة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ مستأنفة لابتداء إعلام بأصل ثان من أصول الدين بعد أصل التوحيد، وهو إثبات الجزاء.

والساعة: عَلَمٌ بالغلبة على ساعة القيامة، أو ساعة الحساب.

وجملة: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ في موضع الحال من ﴿السَّاعَةَ﴾ أو معترضة بين جملة وعلتها.

والإخفاء: الستر، وعدم الإظهار، وأريد به هنا المجاز عن عدم الإعلام.

والمشهور في الاستعمال أن (كاد) تدل على مقاربة وقوع الفعل المخبر به عنها، فالفعل بعدها في حيز الانتفاء، فقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً﴾ يدل على أن كونهم لبداً غير واقع، ولكنه اقترب من الوقوع.

ولما كانت الساعة مَخْفِية الوقوع، أي مخفية الوقت، كان قوله: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ غير واضح المقصود؛ فاختلفوا في تفسيره على وجوه كثيرة أَمْثَلُها ثلاثة.

فقيل: المراد إخفاء الحديث عنها، أي من شدة إرادة إخفاء وقتها، أي يراد ترك ذكرها.

ولعل توجيه ذلك أن المكذبين بالساعة لم يزدهم تكرر ذكرها في القرآن إلا عناداً على إنكارها.

وقيل: وقعت (أكاد) زائدة هنا بمنزلة زيادة (كان)[1] في بعض المواضع؛ تأكيداً للإخفاء، والمقصود: أنا أخفيها فلا تأتي إلا بغتة.

وتأول أبو علي الفارسي معنى ﴿أُخْفِيهَا﴾ بمعنى (أظهرها).

وقال: همزة ﴿أُخْفِيهَا﴾ للإزالة مثل همزة أعجم الكتاب، وأشكى زيداً، أي أزيل خفاءها.

والخفاء: ثوب تلف فيه القربة مستعار للستر.

فالمعنى: أكاد أظهرها، أي أظهر وقوعها، أي وقوعها قريب.

---

١ ـ كما في الشاهد النحوي:

سراة بني أبي بكرٍ تسامى   على كان المسوَّمة العراب (م)

وهذه الآية من غرائب استعمال (كاد) فيضم إلى استعمال نفيها في قوله: ﴿ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ في سورة البقرة. ١٦/٢٠١-٢٠٢

٨- **ومآرب**: جمع مأربة، مثلث الراء: الحاجة، أي أمور أحتاج إليها.

وفي العصا منافع كثيرة روي بعضها عن ابن عباس، وقد أفرد الجاحظ من كتاب البيان والتبيين باباً لمنافع العصا.

ومن أمثال العرب: «هو خير من تفارق العصا».

ومن لطائف معنى الآية ما أشار إليه بعض الأدباء من أن موسى أطنب في جوابه بزيادة على ما في السؤال؛ لأن المقام مقام تشريف ينبغي فيه طولُ الحديث. ١٦/٢٠٦

٩- **فالشرح**: حقيقته: تقطيع ظاهر شيءٍ ليِّن.

واستعير هنا لإزالة ما في نفس الإنسان من خواطر تكدره، أو توجب تردده في الإقدام على عملٍ ما؛ تشبيهاً بتشريح اللحم بجامع التوسعة. ١٦/٢١٠

١٠- **وخص هارون؛ لفرط ثقته به**، ولأنه كان فصيح اللسان مِقْوالاً، فكونه من أهله مظنةُ النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخَ الخاصَّ؛ لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي. ١٦/٢١٢

١١- **وعلل موسى - عليه السلام - سؤاله تحصيل ما سأله لنفسه ولأخيه**، بأن يسبحا الله كثيراً ويذكرا الله كثيراً.

ووجه ذلك أن فيما سأله لنفسه؛ تسهيلاً لأداء الدعوة بتوفر آلاتها ووجود العون عليها، وذلك مظنة تكثيرها.

وأيضاً فيما سأله لأخيه تشريكه في الدعوة، ولم يكن لأخيه من قبل.

وذلك يجعل من أخيه مضاعفةً لدعوته، وذلك يبعث أخاه -أيضاً- على الدعوة.

ودعوة كل منهما تشتمل على التعريف بصفات الله، وتنزيهه؛ فهي مشتملة على التسبيح، وفي الدعوة حث على العمل بوصايا الله -تعالى- عبادَه، وإدخالُ الأمة في حضرة الإيمان والتقوى.

وفي ذلك إكثار من ذكر الله بإبلاغ أمره ونهيه؛ ألا ترى إلى قوله -تعالى- بعد هذه الآيات: ﴿ اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾.

أي لا تضعفا في تبليغ الرسالة؛ فلا جرم كان في تحصيل ما دعا به إكثار من تسبيحهما وذكرهما الله.

وأيضاً في التعاون على أداء الرسالة تقليل من الاشتغال بضرورات الحياة؛ إذ يمكن أن يقتسما العمل الضروري لحياتهما، فيقل زمن اشتغالهما بالضروريات، وتتوفر الأوقات لأداء الرسالة، وتلك فائدة عظيمة لكليهما في التبليغ.

والذي ألجأ موسى إلى سؤال ذلك علمُه بشدة فرعون، وطغيانِه، ومَنْعِهِ الأمةَ من مفارقة ضلالهم؛ فعَلِمَ أن في دعوته فتنةً للداعي؛ فسأل الإعانة على الخلاص من تلك الفتنة؛ ليتوفرا للتسبيح والذكر كثيراً. ١٦/ ٢١٣-٢١٤

١٢- ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلا تَحْزَنَ ﴾.

جملة: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ عطف على جملة: ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ ﴾ الخ.

جعل الأمران إتماماً لمنة واحدة؛ لأن إنجاءه من القتل لا يظهر أثره إلا إذا أنجاه من الموت بالذبول؛ لترك الرضاعة، ومن الإهمال المفضي إلى الهلاك أو الوهن إذا ولي تربيتَه مَنْ لا يشفق عليه الشفقة الجبلية.

والتقدير: وإذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله؛ لأجل أن تصنع على عيني.

والصنع: مستعار للتربية والتنمية؛ تشبيهاً لذلك بصنع شيء مصنوع، ومنه يقال لمن أنعم عليه أحد نعمة عظيمة: هو صنيعة فلان. ٢١٨/١٦

١٣ـ **وهذه منة عليه لإكمال نمائه، وعلى أمه بنجاته**، فلم تفارق ابنها إلا ساعات قلائل، أكرمها الله بسبب ابنها.

وعطف نفي الحزن على قرة العين؛ لتوزيع المنة؛ لأن قرة عينها برجوعه إليها، وانتفاء حزنها بتحقيق سلامته من الهلاك ومن الغرق، وبوصوله إلى أحسن مأوى.

وتقديم قرة العين على انتفاء الحزن مع أنها أخص فيغني ذكرها عن ذكر انتفاء الحزن؛ روعي فيه مناسبة تعقيب ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ بما فيه من الحكمة، ثم أكمل بذكر الحكمة في مشي أخته فتقول: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ في بيتها، وكذلك كان شأن المراضع ذوات الأزواج كما جاء في حديث حليمة، وكذلك ثبت في التوراة في سفر الخروج. ٢١٩/١٦

١٤ـ **والفُتُون**: مصدر فتَن، كالخروج، والثبور، والشُّكور، وهو مفعول مطلق لتأكيد عامله وهو: ﴿ فَتَنَّاكَ ﴾ وتنكيره للتعظيم، أي فتوناً قوياً عظيماً.

والفتون كالفتنة: هو اضطراب حال المرء في مدة من حياته.

وتقدم عند قوله -تعالى-: ﴿ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ في سورة البقرة.

ويظهر أن الفتون أصل مصدر فتن بمعنى اختبر؛ فيكون في الشر وفي الخير.

وأما الفتنة فلعلها خاصة باختبار المضر، ويظهر أن التنوين في: ﴿ فُتُوناً ﴾ للتقليل، وتكون جملة: ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ كالاستدراك على قوله: ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ ﴾ أي نجيناك وحصل لك خوف، كقوله: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ فذلك الفتون.

والمراد بهذا الفتون خوف موسى من عقاب فرعون وخروجه من البلد المذكور في قوله -تعالى-: ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾.

وذِكْرُ الفتونِ بين تعداد المنن إدماجٌ للإعلام بأن الله لم يهمل دم القبطي الذي قتله موسى؛ فإنه نفس معصومة الدم؛ إذ لم يحصل ما يوجب قتله؛ لأنهم لم ترد إليهم دعوة إلـهية حينئذ؛ فحين أنجى الله موسى من المؤاخذة بدمه في شرع فرعون ابتلى موسى بالخوف والغربة؛ عتاباً له على إقدامه على قتل النفس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ﴾.

وعباد الله الذين أراد بهم خيراً ورعاهم بعنايته يجعل لهم من كل حالة كمالاً

يكسبونه، ويسمى مثل ذلك بالابتلاء، فكان من فتون موسى بقضية القبطي أن قدر له الخروج إلى أرض مدين؛ ليكتسب رياضةَ نفسٍ، وتهيئةَ ضميرٍ؛ لتحمل[1] المصاعب، ويتلقى التهذيب من صهره الرسول شعيب -عليه السلام-.

ولهذا المعنى عقب ذكر الفتون بالتفريع في قوله: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ فبين له كيف كانت عاقبة الفتون.

أو يكون الفتون مشتركاً بين محمود العاقبة وضده مثل الابتلاء في قوله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾.

أي واختبرناك اختباراً، والاختبار: تمثيل لحال تكليفه بأمر التبليغ بحال من يختبر، ولهذا اختير هنا دون الفتنة. ١٦/٢٢٠-٢٢١

١٥-﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)﴾.

هذا حكايةُ جوابِ فرعونَ عن الكلام الذي أمر الله موسى وهارون بإبلاغه فرعون؛ ففي الآية حذفُ جُمَلٍ دل عليها السياق؛ قصداً للإيجاز، والتقدير: فَأَتَيَاه، فقالا له ما أمِرا به، فقال: فمن ربكما؟

ولذلك جاءت حكاية قول فرعون بجملة مفصولة على طريقة حكاية المحاورات التي استقريناها من أسلوب القرآن، وبيناها في سورة البقرة وغيرها.

ووجه فرعون الخطاب إليهما بالضمير المشترك، ثم خص موسى بالإقبال عليه بالنداء؛ لعلمه بأن موسى هو الأصل بالرسالة، وأن هارون تابع له.

---

١ - هكذا في الأصل، ولعلها: ليتحمَّل. (م)

وهذا وإن لم يحتوِ عليه كلامهما؛ فقد تعين أن يكون فرعون عَلِمَه من كيفية دخولهما عليه ومخاطبته، ولأن موسى كان معروفاً في بلاط فرعون؛ لأنه ربيُّه أو رَبِيّ أبيه؛ فله سابقة اتصال بدار فرعون، كما دل عليه قوله له المحكي في آية سورة الشعراء: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ الآية.

ولعل موسى هو الذي تولى الكلام وهارون يصدقه بالقول أو بالإشارة، وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنهما قالا له: ﴿إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ﴾.

وأعرض عن أن يقول: فمن ربي؟ إلى قوله: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمَا﴾ إعراضاً عن الاعتراف بالمربوبية ولو بحكاية قولهما؛ لئلا يقع ذلك في سمع أتباعه وقومه فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له رباً، وتولى موسى الجواب؛ لأنه خص بالسؤال بسبب النداء له دون غيره. ١٦/٢٣١ـ٢٣٢

١٦ـ **قال الزمخشري في الكشاف:** «ولله در هذا الجواب ما أخصره، وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق». ٢٣٣/١٦

١٧ـ و﴿السَّامِرِيُّ﴾: يظهر أن ياءه ياء نسبة، وأن تعريفه باللام للعهد.

فأما النسبة فأصلها في الكلام العربي أن تكون إلى القبائل والعشائر؛ فالسامري نسب إلى اسم أبي قبيلة من بني إسرائيل أو غيرهم يقارب اسمه لفظ سَامِر، وقد كان من الأسماء القديمة (شُومر) و(شامر) وهما يقاربان اسم سامر لا سيما مع التعريب.

وفي أنوار التنزيل: «السامري نسبة إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لها:

السامرة» ا ـ هـ. ١٦/٢٧٩.

١٨ـ وقد قُرن بين انتفاء الجوع واللباس في قوله: ﴿أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ وقرن بين انتفاء الظمأ وألم الجسم في قوله: ﴿لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَى﴾ لمناسبة بين الجوع والعري، في أن الجوع خلو باطن الجسم عما يقيه تألمه وذلك هو الطعام، وأن العري خلو ظاهر الجسم عما يقيه تألمه وهو لفح الحر وقرص البرد، ولمناسبةٍ بين الظمأ وبين حرارة الشمس في أن الأول ألم حرارة الباطن، والثاني ألم حرارة الظاهر؛ فهذا اقتضى عدمَ اقترانِ ذكرِ الظمأ والجوع، وعدم اقتران ذكر العري بألم الحر، وإن كان مقتضى الظاهر جمع النظيرين في كليهما؛ إذ جمع النظائر من أساليب البديع في نظم الكلام بحسب الظاهر لولا أن عرض هنا ما أوجب تفريق النظائر.

ومن هذا القبيل في تفريق النظائر قصة أدبية طريفة جرت بين سيف الدولة وبين أبي الطيب المتنبي ذكرها المعري في (معجز أحمد) شرحه على ديوان أبي الطيب إجمالاً، وبسطها الواحدي في شرحه على الديوان وهي: أن أبا الطيب لما أنشد سيف الدولة قصيدته التي طالعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

قال في أثنائها يصف موقعة بين سيف الدولة والروم في ثغر الحدث:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

فاستعادها سيف الدولة منه بعد ذلك، فلما أنشده هذين البيتين، قال له سيف

الدولة: إن صدري البيتين لا يلائمان عجُزَيْهما، وكان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله:

كأني لم أركب جواداً للذة ... ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال

ولم أسبأ الزقَّ الرويَّ ولم أقل ... لخيلي كُرِّي كرةً بعد إجفال

ووجه الكلام على ما قال العلماء بالشعر أن يكون عجز البيت الأول للثاني، وعجز البيت الثاني للأول؛ ليستقيم الكلام؛ فيكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، ويكون سباء الخمر للذة مع تبطن الكاعب.

فقال أبو الطيب: أدام الله عز الأمير، إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم منه بالشعر فقد أخطأ امرؤْ القيس وأخطأت أنا، ومولانا يعرف أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك؛ لأن البزاز لا يعرف إلا جملته، والحائك يعرف جملته وتفصيله؛ لأنه أخرجه من الغَزْلية إلى الثَّوبية.

وإنما قرن امرؤ القيس لذةَ النساء بلذة الركوب للصيد، وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء، وأنا لما ذكرت الموت أتبعته بذكر الردى؛ لتجانسه، ولما كان وجه المهزوم لا يخلو أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت:

.... ووجهك وضاح وثغرك باسم

لأجمع بين الأضداد في المعنى.

ومعنى هذا أن امرأ القيس خالف مقتضى الظاهر في جمع شيئين مشتهري المناسبة، فجمع شيئين متناسبين مناسبة دقيقة، وأن أبا الطيب خالف مقتضى الظاهر من جمع النظيرين؛ ففرقهما لسلوك طريقة أبدع، وهي طريقة الطباق بالتضاد وهو أعرق في صناعة البديع.

وجُعِلَت المنة على آدم بهذه النعم مسوقة في سياق انتفاء أضدادها؛ ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة؛ تحذيراً منها؛ لكي يتحامى من يسعى إلى إرزائه منها. ١٦/٣٢٢_٣٢٤

١٩ـ وقد جاءت خاتمة هذه السورة كأبلغ خواتم الكلام لإيذانها بانتهاء المحاجة، وانطواء بساط المقارعة.

ومن محاسنها: أن فيها شبيه رد العجز على الصدر؛ لأنها تنظر إلى فاتحة السورة، وهي قوله: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلاَّ تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾ لأن الخاتمة تدل على أنه قد بلغ كل ما بعث به من الإرشاد والاستدلال، فإذا لم يهتدوا به فكفاه انثلاج صدرٍ أنه أدى الرسالة والتذكرة، فلم يكونوا من أهل الخشية، فتركهم وضلالهم حتى يتبين لهم أنه الحق. ١٦/٣٤٩